أمين الباشا

دقّات السَّاعَة

قصص ورسوم

دار نلسن

مَنْ قطع أذن ڤان غوغ؟

ـ أهلاً. كيف حالك؟ اتصلت بك مراراً. أما زلت عائشاً في الحلم؟

ـ . . . أرجوك. أعتقني. أنا أجرّب أن أنسى وأنت تعيدني إلى. . .

ـ أنا لا أعيدك إلى أي مكان. . . أريد أن تستريح، وتتخلص من غمّك. لعلك إذا فتحت لي قلبك، تريح نفسك، هذا ما أريده لك.

ـ وتريد أيضاً أن تسمع قصتي للمرة العاشرة. . . لا. . . لن أردد ما أخبرتك إياه، ويكفي أني. . .

ـ اسمع، أنا لا أريد، كما قلت، سوى راحتك، إذا رأيتَ أنك لستَ في حاجة لتفرج عمّا فيك، فهذا جيد.

ـ يا سامي. . . أنت تعلم أن قصصي وقصصك أيضاً هي لنا وحدنا. أنا أخبرتك كل شيء وأعتقد أني الآن على طريق الشفاء. . . على طريق الخلاص من حزني. . . هل تريدني أن أضحك؟ ها. . . ها. . . ها ألست مسروراً الآن؟ لقد ضحكت. اضحك أنت، وإذا فعلت فإني سأدعوك إلى عشاء فاخر.

ـ ها ها ها ها.

سامي وحليم صديقان منذ الطفولة، من الحي نفسه والمستوى الاجتماعي، درسا في المدرسة نفسها، وتخرّجا من الجامعة نفسها، سامي يعمل في التجارة، وحليم أستاذ جامعي يدرّس الأدب الإنكليزي. ولن أقول فيهما أكثر، بل سيقولانه هما معاً في مجرى الحديث، لكن لا بد من الإشارة إلى أن حليم، في ذهابه منذ شهرين إلى فرنسا، صادف أن تعرّف على جارته في الطائرة، السيدة... لا يعرف حتى اسمها. وبقيا يتكلمان. طوال السفر، طوال الأربع ساعات التي مضت كأنها أربع دقائق، كما قال.

ـ أأزعجك إذا دخنت؟ سألت السيّدة.

ـ لا... أرجوك... أبداً.

ـ هل تريد سيجارة؟

ـ لا... شكراً.

شعر حليم أن جارته تريد التكلم فبادرها بالسؤال السهل الذي منه تأتي الأسئلة الصعبة.

ـ إلى أين تذهبين؟ إلى فرنسا؟

رأى أن سؤاله سخيف بعض الشيء، فهي في طائرة للخطوط الفرنسية وتسافر من بيروت إلى باريس. وهل ينتظر منها أن تهبط بمظلّة إلى اليونان؟ أم على شواطئ إيطاليا؟ إلى جنوى مثلاً أو في عرض البحر... حقاً هذه سخافة. هذا ما فكّر حليم، لكن جارته أجابته ببساطة من دون استغراب.

ـ لا...

ـ إلى أين إذن؟ عفواً. الطائرة ذاهبة إلى باريس.

ـ سأبقى في مطار أورلي ساعة، ثم بالطائرة إلى أمستردام لأبقى فيها عشرة أيام.

ـ آه... لمَ أمستردام؟ اعذريني... اعذري أسئلتي.

ضحكت ثم ابتسمت وقالت:

ـ لا بأس، هذا يجعل السفر مسلّياً. لمَ أمستردام؟ أنا أدرس حياة ڤان غوغ. ڤانسان ڤان غوغ.

ـ الرسام الذي قطع أذنه ليهديها إلى حبيبته؟

ـ هو بالذات. الرسام الذي أهدى أذنه لصديقته.

قالت هذا وابتسمت ابتسامة بريئة لسؤال بريء، مكتشفة أن جارها لا يعلم عن حياة ڤان غوغ وفنّه سوى قطع أذنه.

دام سكوتهما ما يقارب العشر دقائق، وكان وجهها هادئاً في تعبيره، بعكس حليم الذي راح يبحث عن سؤال آخر ليتابع حديثه مع جارته. وأخذ يسترق النظر إليها وهي تنظر إلى الغيوم من نافذة الطائرة. سمراء غجرية، شعرها الأسود مضبوب بطريقة تذكّر بشعر الأندلسيات. رأس صغير، عينان سوداوان وفم غني، ورقبة بارزة جداً كأنها ركيزة لتمثال رأس امرأة أقل ما يقال فيها أنها جميلة.

لم يجد حليم أي سؤال ليطرحه عليها... خوفاً من أسئلته البسيطة. لكنها فاجأته هي قائلة:

ـ وحضرتك... ذاهب إلى أين؟

ـ أنا... أنا ذاهب إلى باريس. الطائرة تحطّ في باريس وأنا سأحطّ معها. وهذه هي المرّة الثالثة التي أسافر إلى هذه المدينة الساحرة. وهنا توقف عن الكلام، لأنه لم يستطع زيادة كلمة واحدة. «المدينة الساحرة» فحسب.

ـ صحيح، مدينة ساحرة، أنا أسكن في باريس منذ ثماني سنوات.

فتح فمه مندهشاً ومسروراً في الوقت نفسه.

ـ كيف؟ تصلين إلى المطار، وتأخذين طائرة ثانية إلى أمستردام ولا تذهبين إلى بيتك؟... أرجوك أن تعذريني. هذه أسئلة... لا.

ضحكت ضحكة أنثوية، وكأنها طمأنته إلى أنها اعتادت على أسئلته، وكأنها أيضاً تعرفه منذ زمن...

ـ سأمضي الأيام المعدودة في هولندا ومن بعدها سأعود إلى باريس... إلى بيتي الصغير. إلى قفصي.

رأى الآن أنها بدأت تبادله الحديث بطريقة ليس فيها أي تصنّع.

ـ أنت تطيرين من بيروت إلى باريس، ومن باريس إلى أمستردام، وتعودين من أمستردام إلى قفصك، كأنك طير يبحث عن شيء. عن السرّ الذي...

ـ عن أي سرّ. لا، أنا ذاهبة إلى هولندا للدراسة. لزيارة الأمكنة التي عاش فيها ڤان غوغ وأدرس لوحاته التي رسمها قبل المرحلة الفرنسية، وتأثير النور في الريف الفرنسي على فنه.

ـ أنت كاتبة إذن؟

ـ لا. أنا درست تاريخ الفن في السوربون واللوفر، وأردت منذ البداية أن أكتب عن هذا الرسام وأقول رأياً فيه وفي فنه علّه لم يُقل حتى الآن، مع ما كُتب عنه من دراسات ومن مجلّدات. وكتابي، إذا استطعت أن أؤلف الكتاب وأنشره، لعلّه...

ـ أنا لا أهتم كثيراً بالفن. أريد أن أقول إنه لم تتح لي الفرص للتعرف على الفن في لبنان.

ـ لماذا؟... آه... أعرف هذا. لبنان فقير في هذا المضمار وإن وجد بعض الفنانين والشعراء، الآن لبنان فقير، والحياة الفنية يجب أن ترتكز على بلد قوي اقتصادياً وثقافياً وسياسياً. إلى آخره.

ـ كيف تريدين أن يحصل كل هذا ونحن في جوار دولة لا تريد سوى موتنا وإفنائنا. إسرائيل ليست مشكلتنا وحدنا، هي مصيبة العالم أيضاً. ولكنّ هذا لا يمنعنا من التقدم. أعني أن فينا تبجّحاً يوازي تقدّم الآخرين. هل تعلمين؟ أنا لا أستطيع أن أشبّه لبنان بأي بلد آخر. أعتقد أن تبجّح اللبناني بنفسه وبأنه في قمّة شعوب العالم ذكاءً ومعرفةً جعله في أسفل السافلين.

أجابته السيدة مبتسمة مازحة:

ـ لا تنس... أنت لبناني وأنا أيضاً. ولكن... هنا تقدّمت المضيفة:

ـ ماذا تشربين سيّدتي؟

ـ ماء. شكراً.

ـ وأنت يا سيدي؟

ـ عصير برتقال.

صوت قائد الطائرة يعلن أننا نطير فوق الشواطئ الإيطالية. نظرت السيّدة من النافذة واقترب منها حليم لينظر أيضاً من النافذة. لم ير شيئاً إلا أن كتفه لامست كتفها. أما القصد فرؤية المنظر فحسب، لكنه لم ير من النافذة سوى الغيوم.

ستمضين عشرة أيام في هولندا؟

ـ نعم.

ـ ثم تعودين إلى باريس، وأكون أنا قد أمضيت عشرة أيام هناك ويبقى لي فيها عشرون يوماً.

هذه الحسابات التي أوردها، قالها وكأنه فكّر فيها ملياً، رغبة في رؤيتها عند عودتها من هولندا.

ـ شهر في باريس، سترى أشياء كثيرة. ماذا ستزور؟ ماذا تحب أن ترى في باريس؟

ـ الآن، منذ الآن قررت أن أهتم أكثر بالفنون.

ـ من الآن فقط.

ـ الفضل لكِ.

ـ ولكن ماذا تزور عادة؟

ـ أحضر حفلات موسيقية عدة، أذهب مرة واحدة إلى الأوبرا ومرة إلى متحف اللوفر، وهكذا. أحبّ حدائق باريس ولا يمضي يوم من دون أن أزور حديقة. ثمّ إني أمشي كثيراً ولذّتي الكبرى أن أضيع في أحيائها. أخرج عند الحادية عشرة

من الفندق ويبدأ ساعتئذٍ برنامجي اليومي. آه... كم كنت أتمنّى أن أتعرف بعمق على الوجه الفني لباريس مع أحد... مع شخص يعرف باريس جيداً.

ـ فهمت، فهمت. إذا أردت خذ رقم هاتفي؟

ـ نعم؟

ـ 0143374205... وبعد مرور أسبوعين اهتف لي. سأرافقك لزيارة بعض المتاحف وبعض الأمكنة التاريخية التي لم تتأثر بموجة الـ Fast-food.

ـ الكولا والهوت دوغ.

ـ وماكدونالد أيضاً وغيره.

ـ والموسيقى. كل هذا طغى على عادات شعوب العالم الفقيرة والغنية. كأن أميركا تشتري أدمغة وتبيع بضاعتها التي تعمل على طمس شخصية الشعوب في مأكلها ومشربها وعاداتها. أنا لست ضد اللغة الإنكليزية، فأنا أدرّس أدبها، لكني لا أحبّذ استعمال الكلمات الأميركية وإدخالها في جملي وأحاديثي اليومية:

yes, ok, hello, right, please لغتنا تعبر عن هذه الكلمات بكلمات جميلة وسلسلة: نعم، أهلاً، حقاً، عفواً وإلى آخره.

شعر أنه الآن، وبعدما أقلعت الطائرة من بيروت وطارت مسافات طويلة ووصلت إلى الأجواء الإيطالية، أخذ يتكلّم ببعض الذكاء، معطياً آراء جديرة بجامعيّ مثله. وهي أيضاً، تحرّكت قليلاً وأدارت له كل وجهها مستمعة وقائلة:

ـ صحيح، هذه هي الحال في العالم اليوم، كما كانت دائماً في

السابق. في الأندلس مثلاً، كانت اللغة العربية هي الأولى، وكانت لغة الفكر والفن، حتى أن مسؤولاً في ذلك الوقت ناشد الشباب الإسباني أن لا ينسوا لغتهم الأمّ وشجّعهم أن يتكلّموها ويكتبوا بها، إلّا أن الحضارة الأندلسية كانت أقوى، والعلوم والترجمات والطبّ والفنون أجمع كانت لغتها هي اللغة العربية، كما أن الخطّ العربي كان فناً جمالياً.

ـ ولا يزال.

ـ لا، أرجوك أصبح مشوّهاً على أيدي بعض الرسامين العرب الذين اعتقدوا أن العودة إلى التراث، هي في استعمال الحرف العربي في رسمهم ليصبح العمل فناً عربياً صرفاً، كما يقولون. والحقيقة أن من أوائل الذين استعملوا الحرف العربي في رسمه هو Paul Klee، الرسّام السويسري الألماني، وبقي فنّه فناً غربياً عالمياً.

ـ Paul klee؟

ـ هل رأيت البعض من أعماله؟ أو قرأت كتاباً عن حياته وفنّه؟

ـ لم أسمع به من قبل. أنا آسف. آسف على نفسي.

ـ لا تأسف كثيراً. الوقت ما زال متّسعاً وسانحاً لك.

قالت هذا وكأنها تخفّف عنه.

ـ شكراً سيّدة...

ـ اسمي سلمى. وأنت؟ دكتور...

ـ حليم.

هبطت الطائرة في مطار أورلي وتودّعا، وأخذت سلمى طريقاً وحليم خرج من المطار مستقلاً سيارة.

الأوتيل في الحي اللاتيني، نزل فيه منذ أول زيارة له لباريس، وتعوّد أن ينزل فيه كل مرّة وهو في شارع Saint Jacques. أوتيل بنجمتين.

مضى أسبوع وبقي القليل لتعود سلمى. شعر حليم كأنه أتى إلى باريس ليراها، لأن صورتها لم تفارق مخيّلته. اليوم التاسع أمضاه في المقاهي، في الـSt. Michel والـ St. Germain، متسكعاً، فرحاً مترقّباً لا يدري ماذا.

لكنه شعر، وللمرة الأولى، أنه يفعل شيئاً جديداً ومختلفاً في سفره، هو انتظار شخص. ليس أي شخص، بل امرأة جميلة، ذكية، مفكّرة كاتبة، حرّة؛ هي التي أعطته موعداً دونما تردّد. كانت فكرتها، رقم هاتفها، وجهها، شعرها، عيناها. وكم قصّة تخيّلها وألّفها وعاشها معها ولكن في مخيلته، حتى أصبح يخاف الواقع، عودتهاورؤيتها. هل ستكون كما كانت في الطائرة، هل التعرّف والتحدث مع رفيقة السفر ينتهي مع انتهاء الرحلة؟ لكنها ليست كذلك... ليست كغيرها.

ـ ألو... ألو... ألو...

لا صوت... لا جواب، وهتف مرة ثانية وثالثة قبل الظهر وبعد الظهر ومساء.

لا صوت... لا جواب.

أخذت أمنياته وأحلامه تتفكّك، في اليوم التالي انتظر الساعة الحادية عشرة صباحاً ليهتف لها.

ـ ألو...

ـ ألو؟ Bonjour oui. آه هذا أنت؟ ها ها... كيف الحال؟ كيف أمضيت أيامك؟ ?sans doute أنت تعرف باريس. ما هذا السؤال؟

عظيم... d'accord ... oui... oui ... إلى الغد إذن.

كانت تسأل وتجيب، وهو لم يفهم ما قاله وما قالته هي. كل ما بقي في ذاكرته أنّ طريقتها في التكلم كانت عصبية، كأنها تتكلم وهي تركض. الساعة الحادية عشرة من اليوم التالي، التقيا في مقهى Les deux magots. كانت تلبس ثوباً أنيقاً فضفاضاً، رأى ركبتيها تلمعان بنور خمري محاط بلون ثوبها الذهبي الملموم بحزام جلدي أحمر، وحذاء أحمر، وشفتاها باللون نفسه. ابتسم في سرّه كمن ينظر إلى صحن كرز شهي وهو في حال من الجوع المحزن.

ـ أخبرني، هل أنت مرتاح في الأوتيل؟

ـ نعم، أنزل فيه كل مرة وأعرف صاحبته والعاملات فيه، وأنا حرّ هناك ومستريح جداً، والحيّ أحبّه كثيراً، أو كأني اعتدت عليه.

le quartier latin est superbe, j'y habite depuis des années.

ـ آه... والله! ?where.

ـ au 15 rue de l'odéon.

ـ قرب مسرح الاوديون؟

ـ oui pas loin.

ـ garçon s'il vous plait?.

ـ Bonjour قال النادل.

ـ un café.

ـ un coca please، قال حليم.

لاحظت سلمى أن حليم يحدّق كثيراً في النساء، فقالت في سرّها: هذا أفضل من أن ينظر ويحدّق في الرجال!

ـ ماذا فعلت؟ أخبرني.

ـ هذه المرة ذهبت مراراً إلى حديقة Le Luxembourg وقرأت كتاباً من Paul Klee أو من تأليفه، وقد أعجبني جداً.

ـ أي كتاب؟ Le journal de Paul klee?.

ـ نعم... كتاب يحكي عن حياته من سنّ الطفولة حتى أواخر حياته. عن الرسم والموسيقى، وكيف أنه اكتشف اللون في تونس، وقال إنه أصبح رسّاماً هناك. وتساءل وهو ينظر إلى وجهه الأسمر وعينيه السوداوين وشكل رأسه. تساءل هل هو من أصل عربي وذكر انبهاره بالأحرف العربية بالهندسة العربية وتأثّره بأبواب الجوامع وزخارفها.

ـ هذا يسرني جداً. إني المحفّزة على ذلك، أليس كذلك؟

ـ أنت محفّزتي على أشياء كثيرة!!

ـ زيارة المتاحف والتعرف على الفنانين!

ـ وأشياء أخرى.

ـ ما هي؟ أرجوك؟ quoi؟

ـ لطفك، وفرحتي بلقائك ثانية.

ـ وإن لم تلقني ثانية؟

ـ لكنت ذهبت إلى كل الأماكن في هولندا لأبحث عنك وعن لوحات ڤان غوغ الذي قطع أذنه.

ـ هدية لصديقته.

ضحك حليم واعداً أنه لن يعيد هذا التعليق السطحي ثانية.

ـ وهذا درس منك. لكنني لن أقطع أذني وأقدمها إليك، بل سأقطع تذكرتين للأوپرا غداً. هل أنت حرّة غداً؟

ـ أنا حرّة دائماً.

ـ موافقة غداً، أدعوك إلى الأوپرا؟

ـ ما هو البرنامج؟

ـ Faust de Gounaud.

ـ ah! formidable.

ـ سلمى، أخذت تذكرتين منذ البارحة.

ـ تعني أنك قررت دعوتي قبل استشارتي.

ـ أحسست أننا سنحضر معاً هذه الأوپرا.

وتواعدا على اللقاء عند باب دار الأوپرا.

قرر حليم أن يستقبلها على الطريقة الباريسية، بطبع قبلة على وجنتها... وتساءل هل هي قبلة واحدة أم قبلتان على

الوجنتين؟ وصل قبلها ووقف عند مخرج المترو، وجعل يراقب المنتظرين والمنتظرات المواعيد. كانت التحية بين الرجل والمرأة تختلف بحسب الأشخاص. منهم من يقبل بنعومة على الخدّين، ويجعل القبلة طويلة الأمد. احتار هو أي تحية ستختارها أو سيستطيع اختيارها لسلمى.

كان ينظر إلى الساعة وأبواب دار الأوبرا، وكلما مرت دقيقة، زاد نبضه وزادت طبول قلبه دقاً. كان نظره معلّقاً على دار الأوبرا معطياً ظهره لدرج المترو.

ـ Bonjour Halim.

فاجأته سلمى من الوراء، ومدّت يدها للتحية، وضاعت عندئذ كل الترتيبات التي تهيّأ لها لتقبيل سلمى.

ـ C'est tôt encore, nous avons le temps de prendre un café

ـ ok، قال حليم.

دخلا Café de la Paix ككل اللبنانيين الذين يحجّون إلى هذا المقهى الذي لا يختلف عن غيره إلّا بغلاء أسعاره؟ كانت على وجه حليم ابتسامة، كأنها تقول شيئاً.

ـ أراك مسروراً جداً، وهذا جيد. أكثر الناس هنا في عبوس دائم.

ـ أنا مسرور لأني أضحك على نفسي.

ـ لماذا. سألت بتعجب.

ـ لأني أحبّ الصراحة.

ـ ومن يمنعك من أن تكون صريحاً.

ـ هذا ما قلته لنفسي.

ـ قل. ماذا تريد أن تقول. لا تتردّد في قول ما تريده وفي فعله أيضاً. الحياة قصيرة جداً.

ـ ما هذا الحديث يا سلمى؟

ـ صحيح، يجب أن لا نتردّد في فعل ما نريد فعله لئلا يفوت الوقت. هنا اقترب حليم منها وقبّلها على وجنتها اليمنى، فأدارت له اليسرى وأعطته شفتيها. وتخيل صحن الكرز الشهي وراح يلتهم كفقير أمام أطيب فاكهة.

وأمضيا ساعة ونصف ساعة في الأوبرا يستمتعان بالمشهد والموسيقى، ويدها ممسكة بيده، واكتشفت أن حليم ملمّ وهو ذو مستوى في الموسيقى وإن لم يكن ملمّاً بالرسم. أحبّت هذا وأحبّت رفقته. وكأنها ستقول إنها أحبّته قليلاً، أو إن صلتها به قد ابتدأت، وإن الصلة بين شخصين في باريس تختلف عنها في بيروت، أما هو فقد جنّ جنونه فرحاً، طرباً، طائراً، خفيفاً، مرهفاً وشاعراً بالعربية والإنكليزية والفرنسية وبلغة الحبّ أيضاً. وكأنه نجح في أول الدروس، مع أنها لم تكن المرة الأولى التي يصادق فيها امرأة.

في غرفة الأوتيل، كرسي واحد، وطاولة واحدة وسرير واحد. تواعدا أن يلتقيا في الأوتيل عند الخامسة من اليوم التالي، وبقيا معاً حتى العاشرة من صباح اليوم التالي. ولم يجلس أحد منهما على الكرسي، الذي بقي في مكانه يراقب ما

يحدث في هذه الغرفة. اتفقا أن يمرّ يومان قبل أن يلتقيا مجدّداً، لكنّ حليم هتف لها مساء اليوم التالي، وتواعدا في مقهى Le flore وهناك كان بالقرب منهما مصمّم الأزياء الإسباني الأصل والباريسي العتيق Paco Rabanne، وكان جالساً مع شابّ أنيق وكأنه أحد موديلاته وفتاة سمراء.

ـ أنا أستعمل عطر Paco Rabanne، يا للمصادفة. أحبّ ذوقه. الله، باريس الساحرة ما أجمل السان جرمان.

ـ هذا هو سحرها الذي لا نستطيع تفسيره.

ـ أنا أستطيع الآن تفسيره.

ـ قل...

سحره يا سيّدتي هو أنت والعطر والليل.

ـ ياه... quel poête!.

ـ وكأني سأعود إلى بيروت وفي جيبي قصائد تحكي الحبّ والسحر.

ـ أنا سعيدة. أنا فرحة لمعرفتي بك.

ـ أنا! لست أدري ما أنا وماذا حصل. وعندما أفكّر في العودة إلى صحراء باطون بيروت أحزن. لكن... لا... نهر السين لا شكّ هو المكان المناسب الآن. ما قولك؟

ـ هيّا إذا أردت.

أمضيا بقية الليل على ضفاف السين، يمشيان تارة وطوراً

يقفان أو يجلسان أو يتلامسان اتّقاء لبرد الليل، وحباً بالالتصاق. بالتلاحم.

كانت تلك الليلة هي الليلة الأولى التي ينام حليم في بيت سلمى، ولم يعرفا متى ناما ومتى استيقظا، إذ هطلت أمطار صيفية أبقتهما معاً يومين كاملين، ورمادية باريس جعلتهما يحولان هذا القفص جنّة من اللذة.

لم يبق لحليم سوى أربعة أيام للعودة، وصار يتنقل من حالة الحزن وتعلّقه بهذه المدينة إلى التفكير في البقاء فيها كأنه اختصر كل هذا في البقاء مع سلمى. وشعر وهو يمشي في شوارع باريس أنه يطير. ينظر تارة إلى الأرض وطوراً إلى الناس وإلى الواجهات، وهو يتمتم بعض نغمات من باخ أو موزارت، ثم يصفّر ويبتسم ويهرول في مشيه، وينظر إلى كل الوجوه وكأنه يدعوها لمشاركته الفرح أو يودّعها.

اليوم سيبقى وحده، سيلتقيان غداً عند العاشرة في مقهى Le select ومن هذه الساعة في انتظار الغد ساعات طويلة، سيمضيها في المتحف لينظر إلى لوحات ڤان غوغ ويعيش معها ساعات يستطيع بعدها أن يتكلم عن زيارته، وتسمع سلمى انطباعاته. أليس ڤان غوغ من الانطباعيين؟ «فلماذا لا أعطي أنا انطباعاتي عن فنّ رسّام انطباعي قطع أذنه هدية لامرأة»! قال هذا وراح يبتسم ويضحك، حتى أن سيّدتين كانتا تمران بالقرب منه ضحكتا لضحكه، ممّا جعله يشعر أن باريس كلها له، وأن كل المارة يعرفون أنه عاشق، وأنه إذا غادر باريس فسينشف نهر السين، وستغلق أبواب المتاحف، وستخرس الفرق الموسيقية، وسيبقى

سكّان المدينة في بيوتهم حزناً عليه وعلى غيابه. لكنه ابتسم وبقي يبتسم وفي ابتسامته ظلّ حزن وأسف. وتساءل ماذا سيفعل في بيروت بعد هذه الرحلة؟ كيف ستمضي الأيام والليالي في انتظار الصيف المقبل.

هما عائدان إلى بيت سلمى، بعد ساعة في مقهى Le Select.

ـ حليم... إني مضطرة أن أسافر غداً إلى هولندا لإكمال دراساتي. سأبقى خمسة أيام، وبعدها...

ـ بعدها أكون أنا في بيروت...

ـ أعرف هذا. أنا مثلك أرى الأيام تركض ركضاً. لست تدري أنت كيف تركض الأيام.

ـ كيف لا وأنا لا أنام لئلا تمضي ساعة ولا أتنشق نسيم باريس، مودعاً، وأنت ستسافرين...

ـ أنا مضطرّة... لا أستطيع التأجيل... وأنت كن واثقاً أني أكثر حزناً منك... والأيام ستبرهن لك هذا.

كان هذا اللقاء الأخير لهما. رذاذ المطر ضاعف الحزن الذي لفّهما معاً، والطبيعة زرفت بعض دموعها.

لكن المطر ازداد وامتلأت المقاهي، ولم يرغب حليم بالدخول إلى مقهى بل أوقف سيّارة أوصلتهما إلى البيت، وبقيا فيه حتى الفجر، بعدما تبادلا العناوين في باريس وبيروت وتواعدا على اللقاء حالما تحين الفرصة.

مضى تشرين الأول والثاني ولم يسمع شيئاً من سلمى.

كان يعود إلى الكتب التي اشتراها عن ڤان غوغ ومراسلاته مع أخيه تيو، وصار بودّه أن يتكلم عنه أكثر، وأحبّه كما أحبّ حياته وجهاده في سبيل الإنسان والفن معاً.

ـ ألو الأستاذ حليم؟

ـ نعم.

ـ تحياتي، أنا شقيق سلمى.

ـ أهلاً.. أهلاً كيف حالها؟ أين أنت؟

ـ إذا كنت تريد أن نلتقي مساء الغد.

ـ بكل سرور. أي وقت تريد؟ هل سلمى في بيروت؟

ـ سلمى ليست في بيروت.

ـ أستاذ حليم؟

ـ أهلاً... نعم. تفضّل.

يتقدم خادم المقهى.

ـ ماذا تشربان؟

ـ قهوة.

ـ قهوة.

وتحدثا عن أشياء مختلفة، محلّية وسطحية، من دون فائدة.

ـ ولكن، سلمى كيف حالها؟ وأين هي؟ هل أنهت دراساتها في هولندا؟

ـ سلمى بدأت بدراساتها عن ڤان غوغ منذ سنتين ولم تستطع أن تكملها.

ـ آه... لماذا؟

ـ أستاذ حليم، هذه رسالة لك من سلمى.

باريس في 12/ 9/ 1997

عزيزي حليم،

لقد أمضينا وقتاً لا يُنسى، وأدخلت إلى قلبي بعض الفرح والسعادة وحبّبتني بالموسيقى وجعلتني أعيش أياماً لا أستطيع أن أصفها، أنا لا أستطيع الذهاب بعيداً من دون أن أخبرك أني لم أذهب مرّة إلى هولندا في الآونة الأخيرة. توقّفت عن السفر إليها منذ عام تقريباً عندما علمت أني مصابة بالداء الذي لا يسمّونه في بلادنا: السرطان. كنت بدل أن أسافر إلى هولندا وأحاور ڤان غوغ، أذهب إلى المستشفى لأحاور الأطبّاء والأدوية. لا تحزن يا حليم. إني أشكرك على ما أعطيتني من فرح، وأعلم أني لن أبقى طويلاً بعد الآن. قبلاتي لك وحبّي. وداعاً. سلمى.

لم تشأ عينا حليم إلّا أن تدمعا، وبقي وشقيق سلمى وقتاً قصيراً في المقهى ثم توادعا. وما زال حليم حتى اليوم يحارب الحزن ويعيش مع سلمى في مخيّلته، وكثيراً ما يراها في وجوه الناس ويأنس إليهم.

* * *

ـ هل فهمت يا سامي؟ إني أجرّب أن أنسى. وقصّتي ستبقى لي، قصّة مفرحة ومحزنة ككل شيء في هذه الحياة. أليس كذلك؟